المرحلة الثالثة / الدراسة المسائية

اسم المادة / فلسفة التاريخ

عنوان المحاضرة : نظرية ارنولد توينبي

اسم التدريسي/المدرس ثائر سلمان فيصل

2025-2026

المحاضرة : نظرية ارنولد توينبي

تنطلق نظريتهُ بأن هناك علاقة بين التاريخ والحضارة والتي يمكن من خلالها دراسة التاريخ وتفسيرهُ واستخلاص نظرية بشأنهُ، وتُنسب هذه النظرية إلى المؤرخ والفيلسوف البريطاني أرنولد توينبي الذي اشتهر بنظريتهُ المعروفة في فلسفة التاريخ التي ذكرها في كتابهُ "دراسة التاريخ"، وتعد من أهم النظريات التي ظهرت في القرن العشرين على مستوى العالم كلهُ والتي تقوم على قانون التحدي والاستجابة.

وهذا التحدي إما أن يكون في بيئة طبيعية قاسية أو ظروف بشرية صعبة أو كلاهما معاً، ومن خلالهما نشأت الحضارات بوصفها وحدات اساسية يتألف منها التاريخ البشري.

الأساس الذي قام عليه توينبي بنظريتهُ في تفسير التاريخ، تتجلى في تميزهُ بين حالة الركود إلى حالة الحركة، وهذا المبدأ الأول في التفكير التاريخي، أي أن مسيرة التاريخ تنشأ بفضل الانتقال من حالة التحدي الخارجي إلى الانفعال الداخلي _أي_ الاتجاه نحو تقرير المصير.

التحدي الفعل الخارجي والاستجابة هو ردة الفعل.

مثال على ذلك: فإن الإسلام كعقيدة دينية مرتبط ارتباط وثيق بالحضارة الإسلامية فالتحديات التي واجهت المجتمع العربي قبل ظهور الحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية عموماً وفي مكة المكرمة موطن الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) على وجه الخصوص، قد واجه تحديات بيئية طبيعية قاسية وتحديات بشرية صعبة تتطلب استجابة ناجحة على هذا التحدي.

فالتحدي الأول بأن مناخ جزيرة العرب مناخ صحراوي شديد الحرارة وأمطار فيها قليلة، فضلاً عن ندرة مصادر المياه الجوفية، فقد عاش أغلبهم حياة البداوة والرحل يتنقلون وراء المياه والكلأ في تلك الصحراء الواسعة.

فكان رد فعل سكان الجزيرة على هذا التحدي الطبيعي، إما الهجرة خارج الجزيرة وإقامة مستوطنات لهم في بلاد الشام والعراق وغيرها وقيام حضارة خارج موطنهم الأصلي أو البقاء في الجزيرة ومصارعة الظروف الطبيعية القاسية، فكانت قريش قد استوطنت مكة المكرمة ومارس أهلها التجارة ولها مكانة دينية عند العرب، كذلك المدينة المنورة (يثرب) التي اعتمدت على الزراعة وغيرها من المدن التي استطاعت تحدي الطبيعة القاسية، أما باقي أجزاء جزيرة العرب فقد ظلت تعيش حياة البداوة مبتعدة كل البعد عن الأخذ بأسباب الحضارة.

أما التحدي الثاني إذ واجه مجتمع شبه الجزيرة العربية نوعين من الغزو (العسكري والثقافي) من قبل الإمبراطورية الرومانية في الغرب، والفارسية في الشرق.

إذ اتخذ هذا التحدي رد فعل شَكل حركة دينية (الإسلام)، فكانت استجابة ناجحة لهذا التحدي، فقد أعتبرهُ السبب المباشر في نشوء الحضارة الإسلامية من خلال اتصال العرب بغيرهم عن

طريق التجارة والبعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تغلغل في جزيرة العرب، كذلك وجود المدن العربية المتاخمة للفرس والروم (المناذرة، والغساسنة).

إذ يقول توينبي "كان الإسلام الدين العالمي الذي اتصل عن طريقةً بالمجتمعات الأخرى اتصال الأخوة"، وأن الحضارة تقوم على أساس ديني

تجلى التحدي : بالانقسامات القبلية، والظلم الاجتماعي، الانحراف الديني في شبه الجزيرة العربية.

الاستجابة: ظهور الإسلام بقيادة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وتأسيس مجتمع قائم على الحرية والعدل والمساواة وتكلل بتوحيد القبائل العربية تحت راية الإسلام وبناء دولة قوية في المدينة المنورة (يثرب).

فقد قسم توينبي المجتمعات البشرية التي تُدعى بالحضارات تميزاً لها عن المجتمعات البدائية إلى (21) مجتمعاً(حضارة)، دُرس معظمها، ولم يبقَ منها سوى(5) مجتمعات (المسيحية الغربية في أوروبا الغربية والوسطى، والمسيحية الارثودكسية في جنوب شرق أوروبا واسيا، والمجتمع الإسلامي، والهندوكي (الهند)، ومجتمع الشرق الأقصى في منطقتين شبه الاستوائية والمعتدلة بين القاحلة والمحيط الهادي.

ويرى توينبي أن التحدي الطبيعي أو البشري له مدى معين يجب أن لا يتعداه، ويجب أن تكون الاستجابة ممكنة، فإذا كان التحدي شديد استنزف المجتمع كامل طاقتهُ في الرد عليه، وحتى إذا نجح في ذلك، فإن ما يبقى من قواه المنتجة لا تكون قادرة على المضيء في النمو الحضاري لكون نشاطهُ قد شُلّ قبل تكامل الحضارة، وسمى هذه الحضارات غير المتكاملة (الحضارات المعطلة أو المتعطلة) مثل المناطق القطبية (الاسكيمو)، والصحراوية (البدو) فلم تستمر حضارتهم كحضارة وادي الأردن، ووادي نهر كولورادو عكس حضارة وادي الرافدين أو النيل .

النتائج الذي توصل إليها توينبي من نظريتهُ :

- دحض النظرية العرقية في نشوء الحضارات على أنها تُصنع من قِبل عناصر بشرية متميزة ومتفوقة، فالمجتمع البشري يتكون في أجناس عديدة وأمم مختلفة، وبذلك فأن توينبي لا يؤمن بالنظرية العرقية ونشوء الحضارات.
- قام توينبي بمقارنة بين الحضارات ووصل من خلالها إلى أن أية حضارة من الحضارات قد شاركت في صنعها أجناس مختلفة ساهمت في انبعاث الحضارة إلى الوجود، واشتركت في تقدم البشرية في مختلف النواحي.
- ركز على التحدي البشري في نشوء الحضارات وجعلهُ السبب المباشر في نشوء الحضارات.

أما انهيار الحضارات فذكر توينبي قائلاً: "انهيار الحضارة الحتمي وزوال مكانها بالتالي من سجل الارتقاء يسبق فعلاً عملية اقتحام حضارة أخرى لها اقتحاماً ظافراً"، فالحضارة تتحلل من الداخل ثم يأتي غزو خارجي ليجهز عليها من خلال:

- إخفاق الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة، وبذلك تحولت هذه الأقلية إلى مجرد أقلية مسيطرة.
- عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقاتها الإبداعية وسحب ولائها لها.
- فقدان الوحدة الاجتماعية في المجتمع بصورة عامة مستندة على النقاط أعلاه.

الانتقادات التي واجهت نظرية توينبي من خلال آرائهُ في تفسير التاريخ:

- اعتماده على الغاية أو الهدف في تفسير مسار التاريخ التي لا يمكن عدها نظرية أو فرضية بل هي مقولة ميتافيزيقية قديمة كانت تؤثر في عملية كتابة التاريخ كالملاحم مثلاً.
- إن المشكلة لا تكمن فحسب في أن توينبي ليس مؤرخاً، وهي حقيقة في صالحهِ، بل في أن كثيراً من أصحاب الفكر التاريخي لم يتضح لهم بعد ماذا كان يحاول القيام بهِ مَثلهم في ذلك مثل توينبي نفسهُ **وتوجهت له انتقادات:**
- لم يظهر اهتماماً بقراءة الوقائع الجزئية لأنه كان يبحث عن نماذج متكررة من الوقائع تصلح لصياغة القوانين التاريخية مما تسبب في تشوية وقائع التاريخ.
- إن تأملهُ الفلسفي للتاريخ العام ركز على تاريخ العالم الكلاسيكي القديم.
- اعتماده على البرهان الجزئي في النتائج التي توصل إليها.
- اعتماده على مصادر غير معتمدة غالباً من قبل الباحثين التقليديين بغرض تعزيز للنتائج (خيالية) غالباً التي توصل إليها.

فقد خرج في دراستهُ على ما اعتاد عليه عمل المؤرخون المحترفون، ولتجاوزهُ ضيق أفقهم، ولفت الأنظار إلى مواضيع دراسية لم تحظى بالاهتمام عادة، ولتضمينهُ فكرة خاصة في تفسير التاريخ ونفذها.